وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿يصدقون بيوم الدين﴾ تصديقًا بأعمالهم واستعدادهم له ويشفقون من عذاب ربهم. واعترض بقوله:

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿إن عذاب ربهم غير مامون﴾ أي: لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يامنه، وينبغي أن يكون مترجحًا بين الخوف والرجاء.

وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾.

قرئ: بشهادتهم وبشهاداتهم والشهادة في جملة الأمانات وخصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها في زيها تضييعها وإبطالها.

أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾.

كان المشركون يحتفون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا وفرقًا فرقًا يستمعون ويستهزؤون بكلامه ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت.

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿مهطعين﴾ مسرعين نحوك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾.

﴿عزين﴾ فرقًا شتى، جمع عزة وأصلها عزوة. كان كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى فهم مفترقون. قال الكميت:

ونحن وجندل باغ تركنا ... كتائب جندل شتى عزينا

وقيل: كان المستهزؤون خمسة أرهط.

كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿كلا﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة. ثم علل ذلك بقوله: **﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾** إلى آخر السورة. وهو كلام دال على إنكارهم البعث. فكأنه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء، فمن أين يطمعون في دخول الجنة.

فإن قلت: من أي وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث؟ **قلت:** من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشاة الأولى كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل، وذلك قوله: خلقناهم مما يعلمون أي: من النطف، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناسًا خيرًا منهم، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة، ويجوز أن يراد إنا خلقناهم مما يعلمون. أي: من النطفة المذرة، وهي منصبهم الذي لا منصب أوضع منه. ولذلك أبهم وأخفى إشعارًا بأنه منصب يستحيا من ذكره. فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم؟ ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم. وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل.

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾.

وقرئ: برب المشرق والمغرب ويخرجون ويخرجون، ومن الأجداث سراعًا بالإظهار والإدغام ونصب ونصب وهو كل ما نصب فعبد من دون الله.

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿يوفضون﴾ يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة سال[1] سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة نوح مكية

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾.

﴿أن أنذر﴾ أصله بأن أنذر، فحذف الجار وأوصل الفعل، وهي أنّ الناصبة للفعل. والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر. أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار. ويجوز أن تكون مفسرةً لأنّ الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود: أنذر بغير أن على إرادة القول.

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾.

﴿أن اعبدوا﴾ نحو أن أنذر في الوجهين.

فإن قلت: كيف؟ قال:

يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ **قلت:** قضى الله مثلاً أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى. أي: إلى وقت سماه الله وضربه أمدًا، تنتهون إليه لا تتجاوزونه

(1) الثعلبي الواحدي ابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي 4/90.

وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن لكم حيله، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾.

﴿ليلاً ونهارًا﴾ دائبًا من غير فتور مستغرقًا به الأوقات كلها.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾.

﴿فلم يزدهم دعائي﴾ جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار، والمعنى: على أنهم ازدادوا عنده فرارًا لأنه سبب الزيادة، ونحوه فزادهم رجسًا إلى رجسهم فزادتهم إيمانًا.

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾.

﴿لتغفر لهم﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصًا ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله. وقيل: لئلا يعرفهم، ويعضده قوله تعالى: ﴿ألا أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم﴾[1] الإصرار من أصر الحمار على العانة إذ أصر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها. استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها. ﴿واستكبروا﴾ وأخذتهم العزة من اتباع نوح وطاعته، وذكر المصدر تأكيد ودولة على فرط استقبالهم وعتوهم.

فإن قُلتَ:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾.

ذكر أنه دعاهم ليلاً ونهارًا ثم دعاهم جهارًا ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف! **قُلتُ:** قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا، ثنى بالمجاهرة فلما لم تؤثر، ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنى: ثم، الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين وأغلظ من إفراد أحدهما. و﴿جهارًا﴾ منصوب بدعوتهم نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد نوعيه الجهار فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاءً جهارًا، أي: مجاهرًا به. أو مصدرًا في موضع الحال أي مجاهرًا.

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾.

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجبة ترغيبًا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال: وأخرى تحبونها نصر من الله ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروي سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر[2]، شبّه الاستغفار بالأنوار الصادقة التي لا تخطىء. وعن الحسن أنّ رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه. فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبوابًا ويسألون أنواعًا فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فتلا له هذه الآية: والسماء المظلة لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر من قوله: إذا نزل السماء بأرض قوم.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾.

والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المنكر والمؤنث كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال.

وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾.

﴿جنات﴾ بساتين.

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾.

﴿لا ترجون لله وقارًا﴾ لا تأملون له توقيرًا أي: تعظيمًا. والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله[3] إياكم في دار الثواب، ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار؟ وقوله:

---

(1) سورة هود، الآية: 5.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 87/3 (الحديث رقم: 4902).

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يبقي الرجاء على بابه، ونقل قولاً آخر لمحله على الخوف، أي: لا تخافون لله عظمة، وعن ابن = عباس: أنّ الوقار العاقبة لاستقرار الثواب، وثبات العقاب من وقر إذا ثبت، قوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهنّ نوراً﴾ قال فيه: وإنما هو في السماء الدنيا؛ لأنّ بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة.

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾.

﴿وقد خلقكم أطوارًا﴾ في موضع الحال، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه؟ وهي حال موجبة للإيمان به لأنه خلقكم أطوارًا أي: تاراتٍ، خلقكم أوّلاً ترابًا ثم خلقكم نطفًا ثم خلقكم علقًا ثم خلقكم مضغًا ثم خلقكم عظامًا ولحمًا ثم أنشأكم خلقًا آخر. أو لا تخافون لله حلمًا وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا. وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبةً، لأنّ العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقرأ إذا ثبت واستقرّ. نبّههم على النظر في أنفسهم أوّلاً لأنها أقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر.

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾.

﴿فيهنّ﴾ في السموات وهو في السماء الدنيا[1]، لأنّ بين السموات ملابسة من حيث أنها طباق. فجاز أن يقال: فيهنّ كذا، وإن لم يكن في جميعهنّ. كما يقال في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما أنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض[2]. ﴿وجعل الشمس سراجًا﴾ يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى أبصاره، والقمر ليس كذلك إنما هو نور لم يبلغ قوّة ضياء للشمس. ومثله قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا﴾[3] والضياء أقوى من النور.

وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾.

استعير الإنبات للإنشاء كما يقال: زرعك الله للخير. وكانت هذه الاستعارة أدلّ على الحدوث، لأنهم إذا كانوا نباتًا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات. ومنه قيل: للحشوية النابتة. والنوابت لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أوّلية لهم فيه. ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة، والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتًا أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾.

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ مقبورين، ثم ﴿يخرجكم﴾ يوم القيامة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾.

وأكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًا ولا محالة جعلها بساطًا مبسوطةً تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه.

لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾.

﴿فجاجًا﴾ واسعةً منفجةً.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾.

﴿واتبعوا﴾ رؤوسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام. وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهةً ومنفعةً في الدنيا زائدةً ﴿خسارًا﴾ في الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها تحقيقًا له وتثبيتًا وإبطالاً لما سواه. وقرئ ووُلده بضم الواو وكسرها.

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾.

﴿ومكروا﴾ معطوف على لم يزده وجمع الضمير وهو راجع إلى من لأنه في معنى الجمع والماكرون هم الرؤساء، ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لا تذرون آلهتكم إلى عبادة رب نوح ﴿مكرًا كبارًا﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل، والكبار أكبر من الكبير والكبار أكبر من الكبار ونحوه طول وطوال.

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾.

﴿ولا تذرن ودًا﴾ كان هذه المسميات كانت أكبر صنامهم وأعظمها عندهم فخصّوها بعد قولهم: لا تذرن آلهتكم. وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمنحج ويعوق لمراد ونسر لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث، وقيل: هي أسماء رجال صالحين. وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم. ففعلوا. فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم. وقيل: كان ودًا على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر. وقرئ ودًا بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثًا ويعوقًا بالصرف. وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببًا منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل وإما

---

(1) قال أحمد: ويلاحظ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾. عاد كلامه قوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ قال فيه: كيف جاز أن يريد الضلال؟ وأجاب: بأنّ المراد به منع الألطاف. قلت: هذا على قاعدته.

(2) قال الزيلعي غريب وروى نحوه ابن مردويه وعبد الرزاق في تفسيرهما 4/94.

(3) سورة يونس، الآية: 5.

التعريف والعجمة، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات ودًا وسواعًا ونسرًا. كما قرئ وضحاها بإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواج.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤﴾.

﴿وقد أضلوا﴾ الضمير للرؤساء، ومعناه: وقد أضلوا ﴿كثيرًا﴾ قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام، ليسوا بأوّل من أضلوهم، أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيرًا. يعني: أنّ هؤلاء المضلين فيهم كثرة، ويجوز أن يكون للأصنام. كقوله تعالى: ﴿إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس﴾(1).

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ولا تزد الظالمين﴾؟ قُلْتُ: على قوله: ﴿رب إنهم عصوني﴾(2) على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال وبعد الواو النائبة عنه. ومعناه قال: رب إنهم عصوني. وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً. أي: قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال كقولك: قال زيد. نودِيَ للصلاة وصل في المسجد. تحكى قوليه معطوفًا أحدهما على صاحبه.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قُلْتُ: المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الإلطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال الضياع والهلاك لقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارًا﴾(3) تقديم.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥﴾.

﴿مما خطيئاتهم﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم(4) وأكد هذه المعنى بزيادة ما. وفي قراءة ابن مسعود: من خطيئاتهم ما أغرقوا بتأخير الصلة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهنّ، وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينهنّ في استيجاب العذاب، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ويعلم أنّ معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى، وقرئ: خطيئاتهم بالهمزة، وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها، وخطاياهم، وخطيئتهم بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد الكفر. ﴿فادخلوا نارًا﴾ جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم لاقترابه ولأنه كائن لا محالة، فكأنه قد كان أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: كانوا يغرقون من جانب، ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها أو لأنّ الله أعدلهم على حسب خطيئاتهم نوعًا من النار. ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا﴾ تعريض باتخاذهم آلهةً من دون الله وأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم. كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهةً ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله. كقوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾(5).

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾.

﴿ديارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما بالدار ديار وديور، كقيام وقيوم. وهو فيعال من الدور أو من الدار أصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ولو كان فعالاً لكان دوّارًا.

فإن قُلْتَ: بم علم أنّ أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة! قُلْتُ: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم. وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب وإنّ أبي حذرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وقد أخبره الله عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. ومعنى.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾.

﴿لا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»(6).

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾.

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 36.

(2) سورة نوح، الآية: 21.

(3) سورة نوح، الآية: 28.

(4) قال أحمد: هذا السؤال مفصح عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق أو لإعواض مترقبة، أو لغير ذلك من المصالح بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح، والصبيان لا جناية سبقت منهم ولا عوض يترقب فيهم، فيرد السؤال على ذلك، وأما أهل السنة فالله تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح، = وينجرّ الكلام منها إلى حكم الله علينا في العدوّ إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذراريهم، إنّ ذلك لا يوجب الإكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمذرية، ويستدل برمي النبي ﷺ على أهل الطائف بالمجانيق، وقيل لهم: فيهم الذرية، فقال: «هم من آبائهم»، وإما رميهم بالنار وفيهم الذرية، فمنعه مالك رحمه الله إلا أن يخاف غائلتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها، والله تعالى أعلم.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 43.

(6) تقدم في أول البقرة.

﴿ولوالدي﴾ أبو ملك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدم وحواء. وقرأ الحسين بن علي: ولوالدي، يريد سامًا وحامًا. ﴿بيتي﴾ منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي. خص أوّلاً من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه. ثم عمّ المؤمنين والمؤمنات ﴿تبارًا﴾ هلاكًا.

فإن قُلْتَ: ما فعل صبيانهم حين اغرقوا؟ قُلْتُ: اغرقوا معهم لا على وجه العقاب، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق. وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمّهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون. ومنه قوله عليه السلام: «يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى»[1]. وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فاهلكهم بغير عذاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجنّ مكية

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾.

قرئ: أحي وأصله وحي. يقال: أوحى إليه ووحى إليه، فقلبت الواو همزةً. كما يقال: أعد وأزن. وإذا الرسل أقتت وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كاشاح واسادة واعاء اخيه، وقرأ ابن أبي عبلة: وحي على الأصل ﴿أنه استمع﴾ بالفتح لأنه فاعل أوحى. وإنا سمعنا بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليهما البواقي، فما كان من الوحي فتح وما كان من قول الجنّ كسر. وكلهنّ من قولهم: إلا الثنتين الآخريين، وأنّ المساجد، وأنه لما قام ومن فتح كلهنّ. فعطفًا على محل الجار والمجرور في آمنا به. كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهنا وكذلك البواقي. ﴿نفر من الجنّ﴾ جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجنّ عددًا، وعامة جنود إبليس منهم. ﴿فقالوا إنا سمعنا﴾ أي: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم، كقوله: فلما قضى: ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابًا ﴿عجبًا﴾ بديعًا مباينًا لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، قائمة فيه دلائل الإعجاز وعجب مصدر يوضع موضع العجيب وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾.

﴿يهدي إلى الرشد﴾ يدعو إلى الصواب. وقيل: إلى التوحيد والإيمان. والضمير في ﴿به﴾ للقرآن، ولما كان الإيمان به إيمانًا بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك. قالوا: ﴿ولن نشرك بربنا أحدًا﴾ أي: ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان، ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل. لأنّ قوله: بربنا يفسره.

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾.

﴿جدّ ربنا﴾ عظمته من قولك: جد فلان في عيني أي: عظم. وفي حديث عمر رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا. وروي: في أعيننا أو ملكه وسلطانه أو غناه[3]. استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت لأنّ الملوك والأغنياء هم المجدودون. والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصاحبة والوالد لعظمته أو سلطانه وملكوته أو لغناه. وقوله: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا﴾ بيان لذلك. وقرئ: جدًا ربنا على التمييز، وجد ربنا بالكسر. أي: صدق ربوبيته وحق آلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد. وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا عن الخطأ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه الله بخلقه واتخاذه صاحبةً وولدًا فاستعظموه ونزهوه عنه.

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾.

سفيههم: إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجنّ، والشطط: مجاوزة الحدّ في الظلم وغيره، ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه. أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط، الفرط ما أشط فيه وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله.

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾.

وكان في ظننا أنّ أحدًا من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفتري عليه ما ليس بحق فكنا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم. ﴿كذبًا﴾ قولاً كذبًا، أي: مكذوبًا فيه، أو نصب المصدر لأنّ الكذب نوع من القول. ومن قرأ: أن لن تقول، وضع كذبًا موضع تقولاً ولم يجعله صفةً لأنّ التقوّل لا يكون إلا كذبًا.

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (الحديث رقم: 8 ـ 2884).

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 4/95.

(3) قال الزيلعي: غريب من حديث عمر وقد تقدم من حديث أنس. رواه أحمد 4/99.